البيان

السنة الاولى — الجزء الخامس

اول يوليو سنة ١٨٩٧

اللغة والعصر

(تابع لما في الجزء السابق)

على أنك لو طفت اليوم في جميع أنحاء البلاد التي كانت مباءةً للعرب ومعرضاً لحضارتهم وفنونهم لم تكد تجد موضعاً تتوسم فيهِ آثار ذلك القديم سوى الديار المصرية التي هي مستودَع ذخائر السَلَف ومجمع شمل علومهم في شمل بقاياهم والتي ان كان قد كُتب لهذه اللغة ان تستأنف البقاء مدة اخرى فان مبعثها انما يكون من ناحيتها وعلى ايدي رجالها وان سبقهم الى احياء رسومها بعض المجاورين لهم ممن اصطبغوا صبغة العرب وليسوا منهم في شيء وشتان بين من يُعنَى بالامر لضَرُورةٍ أحوجتهُ اليه ومن تكون فائدتهُ لهُ وخسرانهُ عليهِ

وقد كان عتِد في هذه العاصمة اعني مدينة القاهرة مُجتمَعٌ لُغَويٌّ تطلّعت اليه أعناق الناطقين بالضاد من جميع الآفاق العربية وتوقّع المنادَبون منهُ فوائد جَمّة مما لم تبرح النفوس متطلعةً اليهِ والاماني معقودةً عليهِ فاعترض دون تلك الثمرات ما عُهِد في اهل الشرق عامّةً والمصريين خاصةً من وِنَاء الهمم وتخلُّف

الثبات على حين لم يجروا في هذا الشوط الاّ خطوات يسيرة ابانوا فيها عن رأي فطير وبضاعة مُزجاة وصدرت الآمال عنهم كما وردت لم تظفر منهم ببلّة بل تجرّعت من اليأس ما زادها على غُلّتها غلّة

ولا بأس ان نُلِمّ في هذا المقام بطرف من تاريخ هذا المجتمع والكشف عن شيء من أعماله بياناً للغاية التي جعلوها نُصب ابصارهم واستنهضوا لها هممهم ثم المبلغ الذي ادركوهُ من ذلك والأمد الذي استولوا عليهِ منهُ لا نريد بذلك تسوئةً لهم ولا غضًّا منهم ولكن الاشارة الى اوجه التقصير فيما هموا بهِ من هذا الامر الخطير والبحث في الخطة التي ينبغي سلوكها للوصول الى المقصد الذي تمثل لهم بعد ما اوضحنا من الحاجة الماسّة اليهِ وما يترتب عليهِ من الفوائد التي أيسرها تدارُك اللغة من السقوط ولحاقها بلغات الغابرين

لا جرم ان الامور انما تستتبّ بالرأي قبل العمل والحازم مَن اذا همّ بفعولٍ نظر في غاياتهِ قبل مبادئهِ حتى يكون مدخلهُ فيهِ سديدًا ومخرجهُ منهُ حميدًا. فأوّل ما يؤخذ عليهم في امر هذا المجتمع انهم حصروا انتخاب المشتغلين بهِ في عداد رجال مصر وحظروا ان يشاركهم فيهِ غيرهم من سائر الناطقين بهذا اللسان وهو امرٌ قد خفي علينا وجه الحكمة فيهِ بل لم نجد لهم عذرًا يخرجهم من المؤاخذة عليهِ. فانهُ ان كان ذلك عن مزيد اعتدادٍ بانفسهم في كفاية هذا الامر حتى أدّاهم الى ترك الاعتداد بغيرهم فهي السوءة التي لا يسترها احسانٌ ولا يشفع فيها فضلٌ ولا مزية بل هي السقطة التي تقضي وحدها على عملهم بالحبوط ومساعيهم بالاخفاق. وذلك أن ما عقدوا العزم على إحداثهِ في هذا المجتمع من الزيادة والتبديل في الفاظ اللغة امرٌ لا يستتبّ نفعهُ ولا تُحقق ثمرتهُ الاّ بأن يعمّ استعمالهُ بين المتكلمين بها وتتداولهُ ألسنتهم واقلامهم حتى

يُلحقوهُ بأصل اللغة ويعتبروهُ في حلة اوضاعها. وعلى ذلك فمن لم يدعوهُ من اولئك الى مشاركتهم في الرأي ومشاطرتهم وجه الحكم فقد دعوهُ بلسان حالهم الى متابعتهم فيما يرون والنزول على ما يحكمون وذلك امرٌ ولا سلطة تعضدهُ لا يتسنى الاّ برضى من يدعونهُ اليهِ وارتياحهِ الى موافقتهم عليهِ وهيهات ان يرضى بذلك منهم وهم قد جعلوا بريدهم اليهِ ما علمت من الاستخفاف والازدهاء. وان كان ذلك طلباً للأثرة والانفراد بالمزيّة على غيرهم فهو امرٌ في غير محلهِ ايضاً وليس من النَصَفة ولا السداد في شيء. وذلك أمّا أوّلاً فلأنهُ لو كان الامر الذي اجتمعوا لهُ من شؤون مصر الخاصة لم يكن في ذلك لأحدٍ حُجّةٌ عليهم ولا حقّ المطالبة بالدخول معهم فيهِ ولكنهُ من الامور الشائعة بين جميع الأُمّة على السواء ليس بعضها احقّ بهِ من بعض فانفرادهم بهِ دون سائرها استبدادٌ لا وجه لهُ وداعٍ الى المنافسة والتخاذل ونقض عروة الوئام. وأمّا ثانياً فلأن مدار العمل على سدّ ما طرأ على اللغة من النقص ووضع ألفاظٍ بازاء المعاني التي حدثت في الأعصر المتأخرة وهناك من الاوضاع والمصطلحات ما لو جُمعت مفرداتهُ في كل فنٍّ لبلغت ان تكون مجلداتٍ كثيرة. ولا يخفى ان هذا من الاعمال التي لا يضطلع بها الا العدد العديد في الزمن المديد مما يدعو الى تضافر الأيدي والاستكثار من العاملين مع مواصلة الجد وادمان الاشتغال ثم هو مع ذلك ربما اتى علينا قرنٌ بتمامهِ ولم نبلغ آخرهُ بل كيف نبلغهُ ونحن لا نفضي الى ذلك الزمن حتى يكون قد حدث من تلك الاوضاع اضعاف الموجود الآن. وبعدُ فانَّ نقل هذه الاوضاع الى لغتنا لا يكفي فيهِ العلم بقوانين العربية والاحاطة بألفاظٍ منها نستظهرها من بطون الدفاتر بل من مقتضاهُ ان يكون اكثر المشتغلين بهِ من العارفين باللغات المنقول عنها

والمطّلعين على علوم اربابها وصنائعهم وسائر فنونهم ليكونوا على بيّنةٍ من مواضع النقص المشار اليها وتحقيق المعاني التي ينبغي وضع الفاظٍ لها بما يؤدّي به المقصود على وجههِ وليس في مصر وحدها من هذه الطبقة الاّ رجالٌ معدودون لا نحسبهم ان كانوا قد جعلوا لهم مكانًا من هذا العمل كافين للاضطلاع بهِ على طولهِ واتّساعهِ وعلى ما يقتضيهِ من التفرغ وادمان النظر. فقد كانوا والحالة هذه في اشدّ الحاجة الى ان يكون لهم في كل قطرٍ أُناسٌ من امثال اولئك يؤازرونهم في العمل ويكونون اعوانًا لهم على النجح وكان يبقى لهم من المزيّة التي حرصوا عليها انهم هم الشارعون في تأسيس هذا المجتمع والداعون اليهِ وان اوضهم مُلتقى اشعّتهِ ومُنبثق انوارهِ وهذا كافٍ في باب الأثرة وهو مما لا يَنفَسُ عليهم منافس. وبالتالي فانهم لو نظروا نظرةً في التأريخ لأدركتهم مثال ما هم فيهِ مما يسفر لهم عن وجه الرأي وينهج لهم سبيل العمل اذ ليست هذه أوّل مرةٍ عبر فيها على الأُمّة مثل ذلك ودعت الحال الى الإحداث في اللغة وادخال شيءٍ جديد بين اهلها. فكلٌّ يعلم ما فعل المأمون حين عرّب كتب اليونان والفُرس والسريان في الطب والحكمة والعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها فانهُ لما لم يجد في الأُمّة من يضطلع باستخراج هذه الكتب الى العربية لم يتوقف عن استدعاء قومٍ من نساطرة العجم ليتولوا لهُ نقلها لم يستنكف من ذلك ولا أنِف مَن بيابهِ من العلماء الذين حشدهم اليهِ من اطراف البلاد وناهيك بهم من كانوا ان يشاركوهم في العمل. وقد افرد لهم مكانًا في بلاطهِ ووزّع تلك الاعمال بينهم على ما يحسنهُ كل فريقٍ منهم ثم جعل لهم يومًا في الاسبوع يجتمعون فيهِ وتُعرَض اعمال المعرّبين على علماء اللغة فيُقرّون منها ما وجدوهُ سديدًا وينظرون في غيرهِ مما لم يقع المعرّبون على وجههِ فيصححونهُ

اما ما كان من ثمرات هذا المجتمع فزبدة ما اتصل بنا انهم عقدوا ستّ او سبع جلساتٍ استحدثوا فيها عشرين لفظةً بازاء عشرين كلمةً من الالفاظ الاعجمية ولا بأس ان نذكر بعض هذه الالفاظ في هذا الموضع تتمةً لسياقة البحث

فمنها قولهم مَرْحَى وأَيْحَى في مكان « برافو » وبَرْحَى في مكان « في » وهي كلماتٌ تقال الأوليان منها لمن اصاب المرمى والثالثة لمن اخطأهُ فنقلوها الى مطلق معنى الاستحسان او الاستهجان. وقد تكلفوا في هذه الالفاظ على ما نرى « وابعدوا المرمى » بما لا حاجة اليهِ لوجود كثيرٍ في كلام العرب من مشهور اللفظ ومأنوسهِ يغني عن اجتلاب هذه الكلمات ونقلها عن مواضعها. فمن قولهم في الاستحسان أحسنتَ وأجدتَ وأبدعتَ ولله دَرُّك ولله انت ولله ابوك وماشاءالله كان وكذاوالآفلا وما اشبه ذلك. ومن هذا القبيل قولهم بَخٍ بخ وبَهٍ بَهٍ وزِهْ بكسر فسكون وهذه الاخيرة من مستدركات الزبيدي على القاموس نقلاً عن الاغاني. ويقولون في التقبيح سَوْءَةً لفلان وقبحاً لهُ وخِزْيالهُ وتَبّالهُ وأُفٍّ لهُ ولأبالهُ وخَيبةً الأبعد وخِزي ولادَرَدَرُهُ ونحو ذلك وكلها من الالفاظ الوافية بالمراد على خلوّها مما في تلك من الغرابة وما في بعضها من الاستهجان في السمع

ومنها قولهم عم صباحاً وعم مساءً في مقابلة « بونجور » و « بونسوار » وهما مما لا داعي اليهِ ايضاً اذ لا اكثر من ألفاظ التحية عندنا فضلاً عن انهما من قديم اللفظ الذي قد أُميت استعمالهُ منذ ازمانٍ مديدة فلا تُقبلان في هذا العصر. وبعدُ فلا نزيدهم علماً ان الذين يقولون بونجور وبونسوار ليس ذلك منهم عن افتقارٍ الى لفظٍ يرادفهما بالعربية فان اجهل العوامّ يقول في تحية الصباح نهارك سعيد او صبّحك الله بالخير مثلاً وفي تحية المساء ليلتك سعيدة او اسعد الله مساءك

ونحو ذلك . ولكن الداء الذي ارادوا علاجهُ بهاتين العبارتين ليس من الادواء التي تعالج من هذا الكتاب ولا التي ينجع فيها هذا الضرب من العقاقير انما علاجهُ تلقين فتيانا حبّ الوطن وتنشئتهم على عزّة النفس والاعتداد بحرمة الذات حتى لا تتسفل اهواؤهم الى التشبُّه بغيرهم ممن ليسوا بخيرٍ منهم احساباً ولا اشرف خلالاً وقد بقي من أعراض هذا الداء ما تجد استعمال هذه الالفاظ في جنبهِ سهلاً نسأل الله ان يلهمنا رشد انفسنا وهو وليّ الهداية

ومنها قولهم نمرة في موضع «نومرو» وهذه لا تخلو من غرابة فان كان القصد منها تعريب اللفظة اي تحويلها الى صيغةٍ توافق الابنية العربية فهو مما سبقتهم اليهِ العامّة يقولون كم نمرة هذا الثوب مثلاً . وان كان مرادهم ان النمرة لفظةٌ عربية بهذا المعنى فلا صحة لهُ لان النمرة في اللغة النكتة في الشيء تخالف لونهُ كما يُرى في جلد النَمِر مثلاً فكان الأولى ان يبحثوا عن لفظةٍ عربيةٍ توافق المعنى والاّ فهذه كغيرها من الكلم التي كانوا يضعونها اتفاقاً من غير ان يطالبهم بها مطالبٌ فلم يكن عليهم بأسٌ من تركها وارجآنها الى فتحٍ جديد

ومنها الحرّاقة في تعريب «التوربيد» قالوا وهي اسم الحرّاقة سفينةٌ فيها مرامٍ للنيران يُرمى بها العدوّ في البحر ولا يخفى ان هذه ليست في شيء من التوربيد اذ هو عبارةٌ عن صندوقٍ ونحوهِ من رقيق صفائح المعدن يُحشَى بالبارود ويُرسَل في قعر البحر حتى يصير تحت سفينة العدوّ ثم يُفجَر بنابضٍ (زنبرك) او سلكٍ كهربآئي فتقذف السفينة صُعُدًا . والتوربيد في الاصل اسمٌ لسمكٍ كهربآئي من لمسهُ خدرت يدهُ وتسميهِ العرب بالرعّاد وهو اللفظ الذي استعملهُ بعضهم في تعريب هذه الكلمة ولعلهُ أولى

ومنها الوشاح اختاروهُ للتعبير عن «الكوردون» الذي يُتخذ للسيف بجامع الهيئة على انهُ ليس تعريباً للفظة الاعجمية اذ هي في الاصل عندهم بمعنى القوّة من قُوَى الحبل ثم نقلوها وان لم يظهر وجه النقل الى هذا السفيف من منسوج الحرير ونحوهِ تشدّهُ النساء على اوساطهنّ ويزيّنّ بهِ رؤوسهنّ وتُجمع بهِ اطراف السجوف وكِلَل الأسرّة ويتخذ منهُ نجاد السيف وغير ذلك والوشاح لا يصلح لشيء من هذه المذكورات الاّ للمعنى الاخير فهو اخصّ من اللفظة المعرَّبة ومع ذلك فلا بأس باستعمالهِ لهذا الموضع

ومنها الطنف لما يسمى «بالبلكون» الا انهم فسّروهُ بالسقيفة التي تُشرَع فوق باب الدار وهي غير البلكون على ان اللفظة أوسع مما ذكروا ويرادفها ايضا الجناح وهو أحسن لفظاً وأدلّ على المراد

ومنها المِشجب لما يقال لهُ عند العامّة «شمّاعة» وهو بالافرنجية «بورت مانتو». وحَصَب الطريق بالحصباء مكان قولهم «وضع فيها المكدام». والبطاف والمِطف لما يسمّى «الپالطو» و«الپاردسو» كذا من غير تعيين والأظهر أن ما اختاروهُ يوافق الاول واما الثاني فأليق ما يسمّى بهِ الدِثار فان كان يُتّقى بهِ ماء المطر فهو المِمطر والمِمطَرة

ومنها البهو بمعنى «الصالون» والقفاز بمعنى «الجوانتي» والبطاقة بمعنى «الكارت» والشرطي والجواز بمعنى «البوليس» وهذه كلها مما سُبقوا اليهِ

وبقيت ألفاظٌ أخر أُرسلت من عفو الذاكرة ولم يضبطها الفكر فلا نطيل باستقصائها والكلام عليها. على انهُ مهما يكن من امر هذه الكلمات فلم يكن من المتعين ان يكون كل ما يضعونهُ واردًا مورد الاصابة ولا ينبغي ان يُتوقع مثل ذلك من ايّ قومٍ تعاطوا مثل هذا الامر الدقيق على ما يقتضيهِ

من الاحاطة وبُعد النظر وكثرة التنقيب في اعطاف الحافظة وبين تضاعيف السطور ولا سيما ان تلك الألفاظ كانت تصدر من وضع الواحد ثم تُنشَر بلا بحثٍ ولا تنقيح فلا عجب ان جاء بعضها مرمًى للنقد. على أنهم لو مضوا على ما بدأوا بهِ من ذلك وأدمنوا الاشتغال بالبحث والتقييد لجاء فيما يضمونهُ فوائد لا تُحصَى ولخدموا اللغة خدمةً سنيَّة كانت تردّها عليهم شكرًا جزيلاً وذكرًا على الايام جميلاً ولكنهم لم يلبثوا بعد وضع هذه الكلمات ان تشاغلوا بانشاد القصائد والقاء الخُطَب ثم خُتم المجتمع على هذا القدر

ستأتي البقية

الصابئة

(عود الى ما في الجزء الثالث).

بناءً على تقاضي بعض مشتركينا الكرام لما وعدنا بهِ في آخر الفصل الذي سبق لنا ايرادهُ في تعريف الصابئة نعود الى بيان بعض عقائدهم وشعائر دينهم على شرطنا من الايجاز والتحصيل فنقول

تعتقد الصابئة وجود الهٍ واحد كائن بنفسهِ هو علة الكائنات باسرها حيّ أزليّ أبديّ منزّهٍ عن الهيولى لا تنالهُ الحواسّ ولا يُفضي اليهِ مخلوق. ويليهِ في المنزلة ثلاث مئة وستون شخصاً قد أُوتوا ان يفعلوا افعال الآلهة الاّ أنهم ليسوا بآلهةٍ ولا هم في عداد القدّيسين لانهم لم يكونوا بشرا قطّ ولا يُعدّون في الملائكة وان كانوا صنفاً منهم لان منهم من يباشر أعمال الخلق كورودربوتو وهيويل زيوو. وهم يعلمون كل شيء ويعرفون الغيب من المستقبلات ولكلٍ منهم في عالم النور مملكةٌ يتولى امرها. أمّا أصل وجودهم فانهم ليسوا بمخلوقين كغيرهم من الكائنات ولكن الله ناداهم باسمائهم فوُجد كلٌّ منهم من تلقاء